الملكة والمتسوّل

وجه ابتهال مدن مهجورة تصيح
وجه ابتهال سفن ضائعة في الريح ،
طيارة من ورق ونار
ودمعة ثقيلة الحجار .
وجه ابتهال لهب في مدن الاغريق
ينهش في لحم يدي فيدياس ، (١)
يغور في كأس أبي نواس .
وجه ابتهال نورس غريق
وجه ابتهال قشة في الريح ،
ظبي عراقي طريد ، متعب ، جريح .
(خذني الى السرير ، خذني ، خذني
واسحق بزنديك غصون حزني .
يا ساهر البرق انهمر حجارة او ماء
يا ساهر البرق احترقنا ، التهم الرداء
جمر وقداح ..

عرفنا مدنا غبراء

وسررا تجأر فيها رغبة الثيران
مثل نمور الغاب في اقفاصها مكبله ،
وقهوة يطفو عليها التبغ سحبا مثقله
تسكننا ، تمتص فينا خضرة النيران ،
يا قمر الطفولة العريان ..
(آه من يكسر باب القبر ؟ من يفمرني
كالندى ، ينفض عن وجهي غبار الكفن
ووشاح الدود ؟ من يقطفني
وردة ، ينزع عن وجهي غصون الوسن ؟
آه من يكسر باب الابد
ينحني ، يشعل نارا في هشيم الجسد
وخيوط الزمن ..)
وجه ابتهال مطر صفير ،
رصاصة تخترق الصخرة في السرير ،
فاكهة يحترق المتخم في هواها ..
يلهث في قميصها ثدياها

مثل خيول متعبه
تسحب خيط العربه ..
وجه ابتهال البقر الوحشي والوعول
هائجة تركض في جرحي .. ابتهال وردة خجول .
(يا ايها الماء الذي يحملني
على ايديه مطرا ، ظلالا ..
اترك على الشاطيء مني زهرة وشالا
وخصلة تلهو على وجه الذي يعشقني ،
وحفنة من شجن
يأتي على هديله الشريد
طير الزمان الازرق السعيد ..
يا ايها الماء انحدر بي نجمة خفيفه
واترك على الشاطيء مني خضرة وريفه
تففو على وجه الذي يعشقني ،
وحفنة من شجن
يأتي على هديله الشريد
طير الزمان الازرق السعيد ..)
تمزق القميص في اصابع ابتهال
بكى القطا الكدري في اصابع ابتهال
واللهب الذاهل في اصابع ابتهال
اللهب الجنائزي ، اللهب الشريد
يحتضن الموجة ، يبكي عريه وناره
يحمل لي محاره
تنشق عن فيدرا وعن اوفيليا في عتمة المغاره ، (٢)
عن الندى والجمر ..
(وجهي النار والجليد ،
الالق الذئبي في الضفائر المحلولة الثقيله
تنفض عن وجه المسيح العرق الناضح والغبار .)
اللهب الجنائزي ، اللهب المثار
يلتهم الثديين ، يطفو زهرة نحيله
يبكي على شطآنها الصفصاف ، يستعيد

---

(١) فيدياس ، النحات الاغريقي المعروف ، ويمثل في هذه القصيدة محاولة الامساك بالجمال الازلي ، ويمثل ابو نؤاس محاولة البحث عن النشوة الازلية ، وفي هذه القصيدة تتحد النشوة الهائلة بالجمال اتحادا أبديا .

(٢) فيدرا : بطلة يوريبيد في مأساته المشهورة بهذا الاسم ، وتمثل هنا الجمال التراجيدي الفاجع ، ولانها قضت نحبها دون ان تبل لهيبها بقطرة من ماء . ولقد ظلت الفجيعة تعانق الجمال الباهر عبر مختلف العصور والحضارات . ولا يمكن باي حال ان نفهم شخصية الملكة في هذه القصيدة ، دون أن نراها اتحادا جماليا واخلاقيا أو انصهارا تاما لابتهال ، وجه الملكة المعاصر ، وفيدرا واوفيليا ، بجنونها وبراءتها ، وجولييت المندفعة الجريئة والتي يأتي ذكرها في القصيدة كعنصر آخر يكتمل به الوجه نهائيا ، وعندئذ تبدأ أنانا ، الالهة السومرية ، بتمثيل هذا المزيج الجمالي والاخلاقي. وأنانا هي عشتار في الادب البابلي القديم ، وهي افروديت التي انشقت عنها محارة في البحر .

وجها صغيرا ، شاحبا ، شريد :
(اقبلوني أمس
يا زهرات الماء ؟
أقبلوني أمس ؟
وطرزوا ثوبي بطيف الشمس
وخضبوا يديّ بالحناء ؟
يا زهرات الماء ..)
اللهب الجنائزي ، اللهب المثار
يخفق في الكهف كطير تائه اتعبه السفار ، (٣)
يلتمّ او يفر ..
« مزق عني الكفن
واسحق بزنديك هشيم الريح والزمن ..
خذني الى السرير ، خذني وردة طريه
وانفض رداء الدود عن فاكهتي الشهيه .
غيرك من يشعل لي اضالعي المنتشره ،
يوقظ فيها قبره ؟
غيرك من يشعل في قميص نومي الجمرة المستعرة ؟
يا قمر الطفولة العريان
بكى الندى في شفة البستان ،
قل لي : هو البلبل ..
خذني ، خذني
واسحق بزنديك غصون حزني .)
ها أنا ادفن وجهي المتعبا
نورسا اخضر في وجه ابتهال
فأرى الموت نخيلا وهلال ،
وأرى الموت صغيرا طيبا .
فأنا والموت طفلان عرفنا بعضنا
ولهونا في اراجيح السعف
وعشقنا امرأة تسكن في جوف الصدف .
ها أنا ادفن في عش العصافير جبيني الموهنا
فأرى الموت سريرا وابتهال
جرة خاوية من طين أور ،
وأرى الموت حصيرا وابتهال
قشة يحملها سرب طيور ،
وأرى الموت غزالا وابتهال
ذئبة تطبق فكيها عليه ..
(وانا نبع صغير
تحمل الريح العصافير اليه ،
وانا خيمة ريش وحرير)..
يا امرأة تسكن في محارة
تنشق عن فيدرا وعن اوفيليا في كلة معطاره
وفي قميص النوم ..
« مزق عني الكفن

(٣) كانت جولييت نائمة ، مخدرة ، في القبر ، عندما هبط اليها روميو حاملا مشعلا في يده ..

وانفض غبار الريح والزمن ،
خذني وخذني وردة طرية ،
فاكهة شهية ..)
كسرت باب القبر ،
كسرت باب الابد المغبر
وها انا اهبط في قرارة الجحيم ،
في ظلمات العالم السفلى ..
(من انت ؟) أنا فيدياس
ابحث عن فيدرا وعن اوفيليا في المرمر القديم ،
في اللهب الاخضر ..
(من انت ؟)) انا ابو نواس
ابحث عن فيدرا وعن اوفيليا في قاع هذي الكاس .
ها أنذا اتبعها ، امسك في يدي ريش الاحصنة
اجثو على اعتاب كل معبد يوقد فيه الكهنة
نيرانهم وتلتوي سحائب البخور .
وفي لهاث الوحل الفائر والجذور
يزدحم الموتى وقد تدثروا بالريش
بين يدي ايريش ، (٤)
ها أنذا اجثو لديها صاغرا ، اسألها : المرور ..
وعند كل حائط او باب
يفتح ، من ابوابها السبعة ، تلتف ذئاب الريح
وتزحف العقارب النساء أو تطير في هيكلها الفسيح .
يا ظلمة ملتفة كالغاب
يا كاهنات الابد الصخري من يدلني ؟
ينفض عن وجهي غصون الوسن ؟
منتحبا اصبغ بالحناء كل عتبة
ابحث عن وجه التي احبها ، اتبع كل عربة
تجرها الوعول أو تطير فوق المدن .
اسأل كل عابر ، اقطع خيط الزمن
وكلما طرقت بابا هائلا وانهمرت اتربة السنين
لمحت من اثوابها شيئا بايدي حرس يلتهمون الطين .
ها أنذا اهبط في قرارة الظلماء
وفي يدي كسرة خبز من حقول الريح
وحفنة من ماء .

(٤) ايريش : أيرش كيجال مليكة العالم السفلي في الاداب السومرية والبابلية ، واخت أنانا آلهة الخصب والحب . وفي القصيدة السومرية « هبوط انانا الى العالم السفلي » تهبط أنانا الى مملكة الموت ، رغبة في ادراك اسرارها والتغلب عليها ، وعند كل باب من الابواب السبعة ينزع الحراس شيئا من جواهرها وثيابها ، حتى تقف عارية امام اختها . وفي العالم السفلي تنتظر انانا ان « يهربوا » اليها خبز الحياة وماءها من اريدو ، فدونهما لا يمكن لها ان تقوم من بين الاموات . وهناك أسطورة بابلية تدور حول القصة نفسها ، وجلجامش ايضا ، في رؤياه ، يهبط الى العالم السفلي .. وفي هذه الاعمال الفنية يرتدي الموتى في مملكتهم ثيابا من ريش ويطيرون باجنحة كالخفافيش ويأكلون الطين ويشربون الوحل .

قيل : اذا ما اكلت وابتردت عادت اليها الروح
ووضع التاج على مفرقها ، وانحدر الخز على كتفيها .
وقيل لي : من يملك الصبر على التحديق في عينيها ،
في اللهب الزبرجدي ، اللهب الغريب ؟
وقيل : من يلمس في ثدييها
طير الزمان الازرق العجيب ؟
ومن ترى
يقطف في ظلال برناسوس زهرة الذرى ؟ (٥)
(آه نم في بيتنا حتى انبلاج السحر
وانا اسقيك من ثغري كؤوسا مسكرة ،
آه نم في بيتنا حتى انبلاج السحر
وانا اعطيك أشهى ثمرة ..)
وقيل لي : منذ ثوان وهي في بحيرة البجع
تضحك ملء الريح
لعلها ، الان ، على فراشها كالطفل تستريح .
وجدتها مبتلة وعارية
ممتدة بطولها في كسل وعافية .
شممت في غرفتها هبة ريح آتية
من مدن مطمورة في غابر الدهور ،
شممت في غرفتها مجامرا توقد في آشور
ونفحة تائهة في سرر تقضي سميراميس
ليلتها فيها كنمر جائع حبيس ،
يلهث ثدياها كخيل متعبة
تسحب خيط العربة ،
مددت كفي نحوها ، نزعت عن جبينها النقاب
وحينما عانقتها طويت زندي على تراب ..
يا كاهنات الابد الصخري ، يا عناكب الزمان ،
أزحن عن بصيرتي ستائر الدخان ..
(حينما طوقني مرت سحابة
فوق عيني ، وغنى بلبل في ليل غابة .
جسدي المفتوح مثل الثمرة
كان في ثوب شفيف ،
وانا ساخنة مثل رغيف .
كان نهدي قبره ،
كان قلبي الخائف الشارد كالارنب في دغل كثيف ،
وانا تائهة منبهرة .
قلت : خذني وردة تبتل في ليلة صيف ،
نهرا اهوج كالثور ، اخترقني مثل سيف .
جسدي ظبي جريح
وسريري ضائع كالبادية ،
فخذ السرة فنجانا وفخذي صاريه
حرة خافقة في كل ريح ..)
انت أم الغبار في اصابعي ؟
أنت أم الزجاجة المكسورة الزرقاء في اصابعي ؟

---

(٥) برناسوس : موئل ربات الشعر في الاساطير اليونانية ، وكان دانتي يرى ، في المطهر ، ان الشاعر يقف عاجزا عن تصوير جمال بياتريش الرائع .

منذ قرون وأنا في قاع ليل الطين
ابحث عن وجهك في آتربة السنين ..
ياكسرة من جرة مهشمة
عودي كما كنت ، انفخي روحك في اجنحة الثيران
وأوقدي النيران
في هذه الهياكل المهدمة ،
واضطجعي ، متعبة ، في ظل ذا البستان ..
فها هنا ، على طري العشب والزؤان
قطفت ذات يوم
زهرتك الفريدة ،
وكنت مثل الظبية المرهقة الطريدة
غارقة في النوم
وحينما أفقت من رقادك الطويل
وقلت : من خضب ثوبي ويدي بحمرة الاصيل ؟
تلطخت بالدم كل عشبة وزهرة
وامتلأت بالدم كل بئر ،
وأترعت بالدم كل زهرة .
(هي ذي فوق السرير الملكي ،
انهكتها رحلة الصيد ووعثاء السرى .
آه : اهبط كالندى فوق السرير الملكي
فأنانا وردة يعقد جفنيها الكرى .)
سقط الثوب على اقدامها ، وانهمر الشعر الطويل
وبكت ضارعة ، ملتهبة ،
كلما أطبقت كفي على الثدي الثقيل
فر كالطير ، وأبقى حفنة من اتربة .
(أسرت قلبي عيناك كصقر جبلي
فأنا خائفة مرتعشة ،
الق بي فوق الفراش المخملي
فأنا خائفة مرتعشة .
ذق دلالي فهو كالشهد لذيذ
واعتصر كل قطوفي الدانية
وتنزه عبر حقل مورق أو رابية ،
ذق دلالي فهو كالشهد لذيذ .
اقترب منه ، اقترب مثل رداء ..
ثمري كالشهد حلو وجميل ،
ضم كفيك عليه كرداء ..
ثمري كالشهد حلو وجميل .
آه مولاي اقترب فهو لذيذ
وشهي كرضاب الشفتين ،
آه مولاي اقترب فهو لذيذ
وطري ناعم كالشفتين .)
وانا في حفرتي المنهدمة
طينة تمعن في تكوينها كف ابتهال ،
كلما تمت تقاطيعي ودبت في عروقي المظلمة
جذوة ، أهوت على وجهي بالفأس ابتهال ..

بغداد

حسب الشيخ جعفر